ذاكرة منهم

بقلم.. لمياء الغراوي /العراق

تزايد دقات مقبض الدم حول بوابة قلبي وأنهض من نومي مفزوع أتجه بترنح نحو الباب أطيل النظر نحو شماعة ملابسي أراها واقفة بصمود أستمد منها أشلاء قوتي لأفتح الباب ويبدأ شريط واقعي بالتزاحم أمامي؛ لتطفو تلك الطفلة تزاحم هواجسي.

"بابا أين سنذهب؟"

قالتها بنبرة طفولية مليئة بالحنان، ليأتيها الجواب بصوت رجولي أجش مستمد عطفه من براءتها:

"حبيبتي سنشتري بعض الشكولاتة، وحاجيات البيت؛ لنرجع"

سرعان ما تقفز طفلته بفرح قائلة:

"حسنًا لماذا لا أتأرجح قليلًا، ثم نعود سريعًا"

يجيبها ذلك الأب الحاني بلطف:

"لا بأس طفلتي لكن فقط قليلًا، ولا تطلبي أكثر فقد نتأخر"

مشهد حفظته عن ظهر قلب فقد كنت أتمعن كثيرًا بملامح الطفلة وأبوها مطولًا وهما يتحاوران، فكان منظرهما جميل جدًا ودافئ أكثر مما الشتاء على مقربة الحطب وعلو النار.

"تشير أنباء الأخبار عن التقاط صورة لمشهد طفلة تحتضن رجل يبدو إنهُ أبوها، قد كانا يقفان قرب أرجوحة، مما يظهر إن الحياة تأرجحت بهما فأوقعتهما بدماء ورديه تُغني للحياة؛ فعصفهما الانفجار ليجعل أحداقهما تراقب مشاهد الدم قبل مشهد الطيران في الجو عاليًا وقبل أن يتأرجحا ها قد هبطا أرضًا..."

كان هذا صوت رجل الأخبار يصدح بخشونة مع هذا الموقف الناعم، كان ذاك الرجل الإخباري ذو اللحية السوداء والشارب الخفيف، مع نظارة صغيرة الإطار وأنف طويل، بشفاه سمراء وشعر أسود خفيف، يُذيع عن انفجار حدث قبل قنبلة أو أكثر بقنبلتين، فالساعة صار مؤشر عقاربها متفجرات، ها قد أحرقت قلب الصغيرة وأبوها.

اعتلى صوتي نعم إنها هي هي، تلك الطفلة التي راقبت مشهدها عن كثب يا إلهي صارت ضحية الدم قبل أن تستمتع بشكولاتة وأرجوحة.

مر هذا المشهد فوق قبعة ذاكرتي لأرفعها بأسّى ودمع، وأفتح الباب خارجًا نحو المطبخ باتجاه الثلاجة لأشرب كوب ماء يبرد قلبي الثمل بالاحتراق.

تزاحم الأخبار حول قتيل وجريح وآخر سجين والكل مُتفرج، شخص واحد فقط من يبدأ بسحب الخيط نحوه؛ ليفتح بقية العقد.

هـو وحـده مـن يسـتطيع تتبـع الأحـداث لمعرفـة السـياق ويـأمر بحـذف وتأخير، أو ربما تقديم!

كل هذا وذاك يتكفله واحد لا غير.

لكـن المشـكلة إن صـنّاعه أحيانًـا متعجرفـون ويبقـون غامضـون حتـى النهايـة، أمـا فئـة أخـرى فهـم المتـاجرون، يتـاجرون بـهِ حيـث شـاءوا وأرادوا.

نعم إنه الـتـأريـخ ذاك الوحيد الذي يخط بسطوره كل ما حدث، لكن بعد أن تأتي عواصف الغبار لتغطي ما حدث فيبدأ هـو بسرد ما كان يحدث.

الثالث من فبراير تأبط ذاك الدفتر الأزرق واعتلى سريره معلنًا فرقعة أصابعه يليها حشو ذلك الدفتر، بعد أن يمارس تحريك مخيلته بأحداث الطفلـة التـي صـارت جـزء لا يبـرم مـن ذاكرتـه، بـدأ يـدس حبـر قلمـه بأحضان صفحته.

أظن إننا في الربيع فالجو يبدو معتدل في الخارج ومحاكمتي في غياب مطبق، ناهيك عن سيناريو الأوضاع الهابطة من قاع لآخر، فلا داعي لتشخيص الطقس، فكلـهُ واحد، فالليل والنهار أصبحا تؤام متشابه، لا ضير بتعاقبهما.

إلا إن الزنزانـة تعـج بارتفـاع حرارتهـا معلنـة الويـل لسـاكنيها الجـاثيين حـول أنفسـهم كالقرفصـاء، كنـت أصـرخ بشـدة وأشـتم كـل قـادات الظلـم والعاملين في تلك القاعة، حتى بت ألعنهم بأسمائهم.

جمال اللعين السافل.

سيف القرد المقرف..

سعد الكلب المتسخ..

حارث الدمية الممزقة...

رحت أقذف لهم لعنة تلو اللعنة حتى خلت بإن حبال أنفاسي قُطعت، إلا أن المثير حقًا بأن كل هذهِ المشاهد كانت في مختلج صدري ولم تتحرك شفتاي إلا لأشهق قليلًا من أكسجين الكبت وأستبدلهُ بثنائي أكسيد الزنزانة.

تشتعل الحرارة في أركان جسدي، ورأسي يهاجمه بركان الصداع الثوري.

كان زين يلعب معي الغميضة ويباغتني مسرعًا بالكشف عن نفسهِ فصغيرتي لُجين تفضحه وتنطق باسمه أينما لمحته، حبيباي أين صوتيكما ليحتويني وأشعر بطعم الطقس والحياة!

تركت ما التف حول إصبعي من ذكريات، فازعًا لصوت مزعج قد اعتلى، يبدو إنهُ لي! عساني أتخلص من ركام الظلام حول مخيلتي فشوقكم كاد يمزقني.

بحَّ صوت مأمور السجن بمناداتي نحو مكان قد يبدأ فيه شيء لا يُحمد عقباه، لكن لا بأس قادتني قدماي نحو مبتغاه.

وقفت على مقربة من جسد يرتدي بدلة سوداء مع شنب خفيف وعينان محدقتان، وأنف عريض، شعر أشمط خفيف، مستحل جسد المنصة

المنتصبة بشموخ والموضوعة في قاعة كبيرة؛ ليفقع مسمعي بنبرة مليئة بالقرف: محمد أمين.

فُتح باب السجن في الثالث من فبراير شعرت وكأنه فتح العالم من حولي فأنا لم أعرف معنى الحياة مذ خمس سنوات، ترنحت في سيري حتى وصلت مهبط فقاعة الصوت، جئت أخطو بخطوات وئيدة من زنزانتي المُظلمة ذات النافذة العلوية لأرى قيود بمعصمي تضغط حولها كلما حاولت أضافة حركة زائدة.

وبين كل قدم وأخرى كومة تساؤلات واستفسارات وأولها:

"لِمَ أنا هنا بهذه الخُطى؟"

ليباغتني الصوت من أعلى المنصة والتي يفترشها جسد رجل سمين ذو أطنان من اللحوم، بالكاد ألمح عيناه الصغيرتان، وأنفهُ الطويل المعقوف نحو الأسفل، تلتصق وسطه نظارة طبية بإطار أسود كسواد قلبه، وتغلف يديه المحشوة باللحم مطرقة لا حول ولا قوة لها.

ليصرخ بنبرة عالية مع انتشار كومة الرذاذ من فمه الممتلئ بالجور والظلم:

"أين المتهم؟"

تخفت دقات القابع في صدري، فقلبي ينتظر ثورة الوجع التي ستقام بكل أركانه وشراييهِ بعد دقائق من إصدار الظُلامة، المُعنونة بالحُكم؛ لأعرف موقعي، فأنا للآن مُتهم، ربما بعد قليل سأكون مُجرم، وربما مجرم بتقدير محترف، وشهادة دراسات عليا.

صراخ يتراكم في داخلي لأقول بعنُف:

"أطلقوا سراحي فأنا رجـل بـريء، قضيتي تناهض الإنسانية وتقف كل المنظمات معي، فيما لو كانت تحافظ على حقوق الأنسان حقًا"

لكن كل هذه الفوضى التي تسربت في داخلي سرعان ما انتشر بريقها؛ لينطفئ في الظلام المكتظ بالواقع!

وقفت بجسد مذلول وكيان مخذول تحت قضبان الظلم المهول؛ لأنتظر إطلاق الرصاصة في صدغي وانتشار دمي بلا طالب له، فأنا مُجرم!!

صوت ابنتي لُجين احتضن رأسي ولم تفارقني نظراتها وهي تناديني:

"بابا هل سأكبر وأبدو أفضل من زين؟ فهو يُزعجني"

"حبيبتي أنت أجمل منه، ولكنه ُأيضًا جميل"

كانت هذهِ المقارنة طقوس يومية لا تفارقني أبدًا، وكنت أستمتع معها، فصغيراي جميلان، ولكن دور الأنثى يطغي عليها حب الجمال وانتزاع الفوز دومًا في كل مرة من المشاغبات مع أخوها، وبكل ثمن حتى تبدأ ثورات مقارنة لا مناص لها!

وَلَكم ألعن العاشر من ديسمبر عندما اشتد القتل، والدم أصبح سلعة متعارف عليها، لانتشار ثورات الظلم في شوارع البلد وبين أزقه المدينة وأروقة الحي.

تم إيقافي بتهمة السطو على أحد محال الأرغفة، ولبشاعة الحظ كان مشتبه بها، على إنها مستودع أسلحة وأفكار مناهضة للأمن المكتوب

حبر على ورق، بلا تنفيذ أو تسديد هدف واحد على الأقل لصالح الشعب؛ لأزج بالسجن بضريبة الأمن، بالكاد كان مصيري ضد الإنسانية، زمجرت معلنًا عن براءتي بصوت عالٍ غير إن السلطات المعادية كان نباحها أقوى من مواء رجل فقير.

تغير الحكم وجاء أكثر من حاكم زهاء خمس سنوات كما قيل لنا، فنحن نرى في كل مرة تغيرات جذرية في أحشاء السجن سرعان ما نسمع بمجيء حاكم جديد!

لأسباب الثورات المشتعل فتيلها حينذاك.

هذا ما جعلني أظل قابعًا بحياة بلا روح، بلا تحقيق، أو مطالبه بالأفراج عني، نسيت لون الشمس ورائحة الحرب وفوضى الدمار، وكل شيء، بقي عالقًا في مخيلتي إنني مجرم لا محال كما يعتقدون بل يجزمون. فأرواحنا باتت سلع متاجرة بورشه "ولادة مُتهمون" لنصبح عما قريب مجرمون لا حول ولا قوة لنا سوى الأمر والطاعة!

اشتقت لطاعة زين وهو يقابلني بتلبية ما أريد؛ ليتسابق مع أخته، تأوهت بوجع آه كم أفتقدكم وأتوق لاحتضانكم بشدة، لكن من دون هذا الزي الذي يلف جسدي.

فها أنا أرتدي ملابس السجن المتعارف عليها حتى إنني أستغرب من لونها الفاقع كيف لا يضر بعيني!

حان قبل ساعات اندلاع باب السجن وتحديدًا تلك القاعة السوداء وهذا الحدث يعد تأريخي بمثابة الدخول نحو عالم أكبر قد فارقتهُ منذ ألف وثمانمائة وخمس وعشرين يومًا.

نعم تغير كل شيء حتى بات الرغيف المحترق مُرمى للنفايات بعدم اكتراث، بعدما كان مرتع لمعدتي أنا وأطفالي وزوجتي.

شعرت إنه لم يتبقى لي سوى"أنا وذكريات" أو "ذاكرة مُتهم"

مر شريط حياتي متسلسلًا لي ليشرح لي مدى وجعي لأندب حظي!

فالخمس سنوات كانت كفيلة بتغيير كل شيء، حتى هذا القابع في كرسيه، ما هو إلا نتاج مخلفات الظلم!

"مُحمد أمين"

قالها القاضي بصوت أجش مليء بالحزم ورذاذه يتطاير بقرف.

"ما سبب تورطك بمستودع الأسلحة؟"

"سيدي، صدقني أنا لم أكن أعرف شيء عنها"

ليجيبني بحزم وتحقير:

"حسنًا، يبدو إنك لا تريد أن ترى النور"

خرج صوتي مُتحشرجًا مُغلف بطابع رجاء:

" لا يا سيدي، لكن وذرات أطفالي وبراءتهم، صدقني لم أكن أعلم بشيء، كنت باحثًا عن رغيف يسد جوعهم فحسب، وصادفت دورياتكم تعلن الإمساك بي دون شعوري، وكم صرت أصرخ ببراءتي لكن!"

ساد الصمت ليأخذ جميعًا أنفاس عميقة، فأنا لم أقترف شيء، وهُم يرغموني على الإدلاء بشيء لم أفعله!

عدت أدراجي وكأن شيء لم يكن ولكن الأيام لن تبقى على حالها!

حتى وإن قتلوني لا تثريب، فأنا بريء، وإن استبيح دمي أهون على قلبي من التنصل خلف ستار الكذب والافتراء.

الآن بعد رجوعي ها هنا، عادت صوركم تطوق قلبي ولا تفارق عيناي، أشعر بحرقة تذيب صدري وتحرق مقلتي.

زيـــن.... لُـــجين..... أحُـبكما.

مرت أشهر وأنا قابع في مكاني، ولم أتحرك في أسطري وخطوطه السوداء، وها هو اليوم السابع من نوفمبر قوبلت بصراخ عال لأفاجئ بمناداتي مسرعًا، ولكن لا أدري إلى أين؟ والآن قد رجعت منهم واستأنفت مقاضاتي لغد، سأكتب لكم غدًا ما ستؤول عليه أنفاسي في الثامن النوفمبري.

أحـبكمـا زيـــن، لُـــجيـــن، اشتقت لـكـمـا.

في العاشر من ديسمبر كنت أصرخ ولا أعرف شيء سوى إن معدتي فارغة وأختي الأصغر قابعة ترسم صورة لا زلت أتذكرها بوضوح، كانت عبارة عن أشكال مُتداخلة فيما بينها وخطوط متعرجة وأمور غير واضحة وتعتلي الصفحة رسمة عين بدموع غزيرة أشعر بحرارتها كلما تذكرتها!

خرج أبـي ولـم يعـد، انتظرنـاه كثيرًا ولكن لم يكن محُصولنا سوى الانتظار، كانت أمي تقول سيعود في هذه الأيام، والناتج لـــم يـــعـد.

"أمي أنا أفتقد أبي ولن أتحمل أكثر من هذا أرجوك أين أبي؟"

ليجيء صوتها الرخيم بنبرة حزن:

"هوّن عليك يا صغيري سيعود هذه الإيام"

باغتها بنبرة متوسلة:

" أمي مضى أكثر من سنتين ونحن ننتظر!"

"صغيري أنت كبير، وسنحتمي بك أنا ولُجين"

قابلتها بعبارة فاقت صبري:

"قاسيت صبرًا وأنا أشتاق أبي"

كانت هذه الذكرى عالقة بي ولن تفارقني ما حييت، كبرت لُجين وأصبحت في سن العاشرة وكبرت أنا وأصبحت في سن الخامسة عشر وبقي أبي ضائعًا عنا، لم يكن في عداد الأموات لنرى قبره ولم يكن في عداد السجناء لنرى وجهه.

كل هذه كانت ألغاز لم تفارقنا حتى ذاك اليوم المختلف بدأ بطرقات خفيفة حول مقبض الباب وانتهى بأمر مختلف تمامًا عما نظن أو نعي!

"هل من أحد هنا؟"

"أهلًا، من الطارق؟"

سمعت صوت أجش يتلفظ أسم أبي:

"أنا وليد صديق محمد أمين، هل هذا منزله؟"

"نعم، نعم، أهلًا وسهلًا يا عم"

فتحت الباب وعلامات الفرح تتطاير حول رأسي ويلتف القلق في قلبي وتعتصر روحي شوقًا للمجهول.

"حبيبي، هل أنت زيّن؟"

أجبته بهدوء مفتعل، فحنجرتي أصيبت بالتشقق فجف فمي، وبنبرة أقرب للشجن:

"نعم يا سيدي أنا هو زيّن"

كان جوابه كالواثق إن الذي قِبالتهُ على قيد الاستيعاب، وبصوت مبحوح وابتسامة شفافة قال:

" هذا الدفتر كان يحمل على غلافه عنوان منزلكم واسمك مزخرف بخط جميل على مقربة من اسم آخر أظن إنه اسم بنت تُدعى لوجي أو لُجين!"

كان كثيف اللحية تتسمر في عينيه نظرة غريبة أشبه بالشفقة والعطف، وأرنبة أنفه تطفو وسط عوالم وجهه، أما جسده فكان نحيل مائل للسّمار وشعره مختبئ تحت قبعة تبدو كما لو إنها ناهزت الثلاثين عام.

أجبته على نفس رتيبة هدوئي السابق:

"شكرًا يا سيدي، لكن أين والدي؟ يبدو إنك تعلم عنه!"

"اقرأ الدفتر وستعرف، أستودعك الله يا بُني"

شعرت بالغليان يكتسح جسدي وتحشرج صوتي لأقول:

"في أمان الله يا عم، رافقتك السلامة"

بدأت مشاريع الاضطراب تتزايد في داخلي وبدأت معدتي بإفرازاتها وأشعر إن نسبة الأدرنالين والنور أدرنالين اتفقنا على أن لا يتعاونا.

جلست أتصفح بسرعة، سرعان ما شرعت برحلتي في معرفة مكان أبي فقد طال الجوى وأشتد الوجع والضنى، وتَوَلدَّ الصدى.

كانت صفحاته تشرح حال أبي عندما كان حبيس الجدران وكيف كان يتألم بشوق لنا، وكيف يستذكر كلماتنا وعباراتنا وفي كل صفحة وضَع أسم زيـن ولُجيـن!

أشـتد الألـم أكثـر وتزايـدات دقـات صـنوبري أسـرع، حتـى وصـلت للصـفحات الأخيـرة كـان الخـط قـد اختلـف بعـض الشـيء واسـمي أنـا ولُجين لم يُوضع قط، ولا أي ذكريات تخصنا!

وكانـت بدايـة الاختلاف فـي الخـط والأسلوب وكُل شـيء تُعلن عمـا لا أنتظره مُطلقًا.

تزايـد ضـغط الـدم فـي رأسـي وارتفعـت نسـبة الإفـرازات فـي معـدتي وشعرت بانقباض يعتصرني، وقلق يحتويني، شرعت بالقراءة وقطرات دمعي تسابقني...

في الثامن من نوفمبر نودي محمد أمين لمقاضاته لكنهُ تأخر كثيرًا، حدثني صديق إنه قد أُعدِم لا محال!

تفاجأت وصرخت وذرعت الغرفة الكئيبة ذهابًا وإيابًا وفي كل خطوة دموع تذرف، آليت إلا أن أعرف كيف ولماذا يُعدم صديقي محمد؛ لأخبركم بكل شيء.

فأبوكما كان يعشقكما كثيرًا وكان شجاع جدًا وفخورًا بكما، كان يُناضل من أجل إحضار الرغيف إليكم لكن فُوجئ بأنه وقف في المكان الخطأ فقُوبل بالظُّلم وسُجن بهتانًا وجورًا.

قد أصرّ إلى آخر لحظة أن ينطق بالصدق، كان صادقًا حتى آخر نفس يهمسه، لكن السلطات الظالمة أبت إلا أن تُدمي نحر الرجل الصادق، أو ينظم معهم بأقنعة سليمة ظاهرًا، ولكنها كالأفعى سامة.

فرفض واستسلم للموت وقد أوصاني لو تم الأفراج لي بأن أخبركم بكل شيء فيما لو قُتل قبلي وأنا أيضًا اتفقت معهُ على نفس المبدأ.

نعم، فقد اتفقنا على هذا الأساس يا صغيريَّ " زين، لُجين"

التف حبل الظُلم حول الشجاعة وأفلت الحبل ليقع مُحمد أمين حبيس الأنفاس صارخًا صوته نحو الحق على ذمة أنفاسه، تأكدوا فإن قصة خروجي لم تكن أيسر من مفارقة أبوكما الحياة، صدقوني ستظل أرواحكما على عاتقي ما حييت.

نعم، لقد قُتل أبي وبقينا أيتام وترملت أمي، ولكن والذي فلق الحب والنوى ورفع روحك للعُلى؛ لأنظف أوساخ الطغاة وأسترجع دمك ولو كُلفت دمي.

قرأت جميع مذكراته وما سجلته أنامله طيلة خمس سنوات وعشرة أشهر واقتصصت النهاية وهَا أنا أضيف عليها لأجعلها قصة تتوسط عبارة

"ذاكرة مُتهم "

ثق يا أبي لن تظل دمائُك حبيسة الضياع، ستُراق دمائي لتضج روحك بالرضا، وتخلد أنفاسك مُطمئنة.